العلوم الإسلامية في الصين

الحاج الاستاذ عبد الرحمن ناجون

استاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي
بجامعة الدراسات الأجنبية بكين الصين

دخل الاسلام في الصين منذ اكثر من ١٣٠٠ سنة ، بلغ عـدد المسلمين حوالى خمس عشرة ملايين نسمة ينتسبون الى عشر قوميات . وقد قدموا مساهماتهـم فى بناء البلاد وتطوير أواصر الصداقة مع شعوب الدول العربية الاسلامية ومع كافة المسلمين فى انحاء العالم . شأنهم شأن أبناء القوميات الأخرى .

— ١ —

قال النبي محمد عليه الصلاة والسلام : "اطلبوا العلم ولو بالصين" .

واتباعا لهذا الحديث الشريف اوفد الخلفاء مندوبيهم الدبلوماسيين الى الصين . وقد وصل الوفد الاول المبعوث من قبل الخليفة عثمان ابن عفان الى مدينة تشانغآن عاصمة الصين آنذاك في اليوم الثاني من صفرسنة ٣١ هـ الموافق لـ ٢٥ آب (اغسطس) سنة ٦٥١ م في عهد أسرة تانغ كما قوبل بالاستقبال من قبل امبراطور الصين ايذانا بتدشين جسر الصداقة بين الصين والعرب . ومنذ القرن السابع جاء المسلمون العرب الى الصيـن للتجارة عن طريق البحر والبر حسب ما جاء في الروايات التاريخية . ويمتد طريق البحر من شبه جزيرة العرب الى مدن قوانغتشو (كانتون) وتشيوانتشو (الزيتون) وهانغتشو ويانغتشو حتى تشانغآن عاصمة الصين عبر خليج منّار وخليج بنغال وضيق ملقا وبحر الصين الجنوبي بينما يمتد طريق البر من فارس وافغانستان الى تشانغآن عبر مقاطعة شينجيانغ (سينكيانج) .

وبفضل استيطان بعض هؤلاء المسلمين القادمين في الصين ، واعتناق بعض

الصينيين للاسلام فقد انتشر الاسلام في الصين بالتدريج ، خلال اكثر من ألف وثلاثمائة سنة • وقد قدم المسلمون الصينيون مساهماتهم في مختلف المجالات • دعونا نتكلم اولا عن منجزاتهم العلمية وحماستهم في استقصاء المعارف •

قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم التي يتخصص بها المسلمون العرب وادخالها الى الصين وخاصة علم الطب والرياضيات والفلك • أما الادوية والوصفات والمعلومات الطبية الاخرى التي نقلوها الى الصين فقد ذكرت في صفحات كثيرة من كتاب ((اصناف العقاقير الصينية)) الذى طبع في القرن الثاني عشر ، وكتاب ((الموسوعة الطبية الصينية))الذى طبع في القرن السادس عشر • وكان المسلمون الصينيون يقومون برصد أحوال الجو بمساعدة علم الفلك العربي والفارسي • وفي القرن الثالث عشر أنشئت ادارة اسلامية خاصة بمراقبة الارصاد الجوية ووضع التقويم الصيني • وفي سنة ١٢٦٧ اخترع الفلكي المسلم جمال الدين " المنواة المتعددة الحلقات" و " المنوأة الموجهة " و " الكرة السماوية " و " الكرة الارضية " الخ •

وكان التقويم الهجري مرجعاً لوضع التقويم الصيني على مدار أربعمائة سنة ابتداء من اواسط القرن الثالث عشر • وفي عام ١٣٨٢ تكللت جهود احد مشايخ المسلمين بالنجاح في ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافيا والفلك مما كسب الاطراء من قبل بلاط الامبراطور • وحيث ان الرياضيات هي اساس علم الفلك فقد انتقلت الكتب الرياضية العربية هي الأخرى الى

الصين في الوقت بالذات . وقد أثبتت ذلك السجلات التاريخية في عهد أسرة يوان . ومن جراء ذلك انبثقت اعداد كبيرة من الاكفاء في علم الفلك والرياضيات من بين المسلمين الصينيين فى عهد أسرتي يوان ومينغ .

وقد عرف المسلمون الصينيون بمهارتهم الفائقة في البناء المعمارى :

ففي الايام الاولى من قدومهم الى الصين بنوا مساجد في تشانغآن وقوانغتشو وتشيوانتشو وهانغتشو تيسيرا لأداء شعائرهم الدينية ، من ذلك ان مسجد هانغتشو الذى بناه علاء الدين في القرن الرابع عشر كان قد نال ثناء الرحالة العربي ابن بطوطة وقت زيارته للصين . وقد رمم هذا المسجد مرات عديدة فهولا يزال باقيا حتى وقتنا الحاضر . وقد تكلف اختيار الدين البنّاء المرموق بمهمة تخطيط بناء القصور لأسرة يوان الملكية سنة ١٢٦٦ م مما ارسى أساسا لبناء قصر الامبرا طور الحالي ببكين .

كان تعلم المسلمين الصينيين للفكر الاسلامي يجرى عن طريق التلقين الشفوى . وقد بدئ ، في اواخر القرن السادس عشر ، بالتعليم الديني في مساجد مقاطعة شنشي . ومن هنا صار في كل مسجد عدة طلاب يتعلمون من امامه القرآن الكريم والحديث والفقه والتوحيد وكذلك اللغة العربية والفارسية .

لقد ظل التعليم الاسلامي الصيني ينهج هذا النظام التعليمي الاستثنائي . ومع ذلك فقد توصل الى اعداد الالاف المؤلفة من ائمة المساجد الذين لا يستغنى عنهم للمسلمين الصينيين ، مما جعل الدين

الاسلامي باقيا في الصين على مدى اكثر من الف سنة • ان ذلك لمن الاسهامات التاريخية التي قدمها التعليم الديني داخل المساجد في نشر الدين الاسلامي في الصين • وما عدا هذا فقد تمخض ذلك عن اعداد مجموعات من فحول العلماء الاسلاميين الذين مكنهم تفانيهم في دراسة الشريعة الاسلامية من تأليف الكثرة الغامرة من الكتب الاسلامية القيمة باللغتين العربية والصينية • واشهرهم الشيخ ((وانج داى يوى)) (حوالي ١٥٦٠ ـ ١٦٦٠م) صاحب كتاب ((توضيح الدين الحنيف)) ، والشيخ ((ما تشو)) (١٦٤٠ ـ ١٧١١م ؟) صاحب كتاب ((ارشاد الاسلام)) ، والشيخ ((ليو تشه)) (١٦٦٠ ـ ١٧٢٠م) صاحب كتب ((احكام الاسلام)) و ((حقائق الاسلام)) و ((سيرة خاتم الانبياء)) ، والشيخ ((ما فو تشو)) صاحب كتاب ((صفوة اصول الاسلام الاربعة)) الخ .. ولم تكن هذه المؤلفات الدينية تتناقلها أيدى الجموع الغفيرة المسلمين جيلا بعد جيل فحسب بل فتحت لغير المسلمين نافذة على تعاليم الاسلام هي الاخرى • وصفوة القول ان التعليم الديني داخل المساجد الصينية قد لعب دورا لا يستهان به في نشر وتنمية الاسلام في الصين •

— ٢ —

وبعد ان وضعت حرب الافيون عام ١٨٤٠ اوزارها تضاءل شأن الصين حتى اصبحت بلدا شبه اقطاعي وشبه مستعمر • ومن اجل انقاذ البلاد من الانهيار ، هب ابناء الشعب الصيني في النهوض بحركة الاصلاح العارمة •

وفي ظل ذلك ،انتاب اصحاب الهمة من المسلمين الصينيين شعور عميق بان التعليم الديني الاسلامي التقليدى في الصين بقي عاجزا عن مواكبة مقتض العصر بحيث تملكتهم الرغبة الشديدة في اصلاح التعليم الديني الصيني • ففي عام ١٩٠٧ لجأ الطلاب المبعوثون من المسلمين الصينيين الى اليابان ،اول ما لجأوا ،الى تأسيس منظمة ما يسمى بـ ((جمعية التعليم الاسلامي للطلاب المسلمين الصينيين الموجودين في طوكيو)) كما اصدروا اول عدد من مجلة ((توعية المسلمين)) - وهي ابكر مجلة من نوعها في الصين — وقد ابدوا في هذا العدد آراءهم المسايرة لمقتض العصر حيال تجديد وتطوير التعليم الاسلامي الصيني • خاصة وان ثورة ١٩١١ التي قادها الدكتور ((صن يات صن)) من اجل الاطاحة بآخر ملكية اقطاعية في الصين ،وان حركة ((٤ مايو)) ١٩١٩ الوطنية ذات الشهرة العالمية لمعارضة الامبريالية والاقطاع ،قد زادتا من تهييج حماسة المسلمين الصينيين الوطنية واشعال غيرتهم لرفع شأن البلاد • وبتأثير من هذا الوضع ودفعه ادخلوا بعض التجديدات على التعليم الاسلامي الصيني •

وفي وقت ابكر من ذلك ،كان الامام الشهير ((ما ليان يوان)) (١٨٤١ — ١٨٩٥ م) من مواليد مقاطعة يونان ،تلميذ الشيخ ((ما فوتشو)) قد نادى قبل غيره بالتعليم باللغتين الصينية والعربية معا • وقد الف وترجم كثيرا من الكتب الاسلامية باللغتين المذكورتين اعلاه ،وقام بتحرير وطبع الآيات القرآنية المقرونة بالترجمات الصينية بجانب

انجازه مشروعا ضخما : طباعة اول مصحف من القرآن الكريم نقش على الخشب ، بفضل دعم السيد ((دوون شيو)) زعيم انتفاضة المسلمين الصينيين وقتئذ . وقد بلغ عدد من يتلمذ عليه اكثر من الف شخص بمن فيهم كثير من العلماء النابغين في انحاء بلاد الصين .

القرآن : تعاليمه وترجمته في الصين

-- الحاج عبد الرحمن ناجون

انّ القرآن أفصحُ كتابٍ عرفه تاريخُ الانسان البشرّى . وفيه آياتٌ بلغَتِ الغايةَ مِنَ الفصاحة .

وقد نزلَ القرآنُ على أسلوبٍ من كلامِ البَشَرِ الذى كان العربُ يسمعُون اليه فرأَوْا فيه كلاماً لَمْ يسمعُوا مِثلَهُ من قَبْلُ . فلا هو شعر ولا سَجْعٌ ملتزم . ولا هو نثرٌ ولا هو خِطابةٌ . وانّما هو نظم بديع اللغة ، مُحكَمُ الوضع ، باهِرُ الروعة ، رقيقُ المعنى يُؤدّى المعانى بعبارات بليغة رفيعة ، حاول بلغاءُ العربِ محاكاتِه فلم يفلحوا . وقال سبحانه وتعالى : " قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على ان يأتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ ، لا يأتُونَ بمِثْلِه ، ولَوْ كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً " (الاسراء : ٨٨) . " افلا يتدبّرونَ القرآنَ ولَوْكانَ مِنْ عندِ غيرِ اللّه . لَوَجدُوا فيه اختِلافاً " (النساء ٨٢) . فما لَبِثَ العربُ أنْ آمنُوا باعجازِه واستحالةِ مجاراتِه . فانّ معانِىَ القرآنِ صريحةٌ واهدافه واضحةٌ تدعُو الى الإيمانِ بجميع الرُسُل تُقرّ برسالاتِهم الدينيّة وتجعَلُ مِنَ الرسُولِ العربّى خاتمَ الأنبياء . ومِنَ القرآنِ آخرَ كُتُبِهم السماويّة .

وقد أثّر القرآنُ تأثيراً هائلا فى جميع ميادينِ الثقافات العربية الاسلامية والعُلوم والآداب والمجتمعات والتنظيمات السياسية الاسلامية .... الخ .

ومن ذلك يتبين لنا أن القرآن يمثل عند العرب جميعا مسلمين وغير مسلمين أرفع مكانة في أدبهم ولغتهم منذ تنزيله ، وهو مصدر فياض خصيب لأدب بارع مزدهر .

فلقد أدى القرآن - فوق رسالته الدينية - رسالة لغوية ادبية لم يؤدها أي كتاب سماوي او ارضي ، مكتوب في أي وقت من الاوقات ولا في اي عصر من العصور . إذ أن اللغة القرشية بفضل القرآن الكريم لغة الجزيرة العربية — مع ما هي عليه من ظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية لغة اقطار

تعم بين القبائل متغلغلة في

الانحاء الداخلية التي لاتزال تتكلم اللغة الحميرية .

ولما توسعت الفتوح الكبرى وأسست الامصار الجديدة بدأت لهجة القرآن تسود في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه . اذ كانت تلاوته فرضا مكتوباً على كل مسلم . وحث الاسلام على تعلمه وتلاوته وحفظه وترتيله . بقوله تعالى " ورتل القرآن ترتيلاً " (المزمل ٤)

" ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم تحشرني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها . وكذلك اليوم تنسى " (ل ١٢٤ — ١٢٥) وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم الى حفظة للقرآن يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكن في الصحارى البعيدة وعلى رؤس الجبال الشامخة .

ومما ساعد على انتشار العربية كون الصلاة بها فرضا على كل أعمى انتحل الاسلام . فالأعمى يسلم ويتعرب . فان المسلم عندما يؤدي الصلاة يتلو القرآن بالعربية . فاضطر الى تعلم اللغة العربية ثم ان هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يجمد . بل تطور تطورا بالتتابع وسرعة .

وضع علم قواعد اللغة العربية . وقد دعت اليه الضرورة الملحة والحاجة الى ضبط القراءة

دراسة القرآن الكريم فى الصين

كان استيعاب المسلمين الصينيين للفكر الاسلامى يجرى عن طريق التلقين الشفوى . وفى كل مسجد طلاب يتعلمون من امامه القرآن . وبتطور التعليم الدينى داخل المساجد على كر العصور . تكونت للمسلمين الصينيين مجموعة كاملة من النظام التعليمى . وكان الطلاب يتلقون بصورة عامة علوم النحو والصرف والبلاغة والكلام وتفاسير القرآن (تفسير الجلالين . وتفسير البيضاوى . وتفسير الحسين .... الخ) . والحديث الشريف والفقه الخ .... وقد جمع بعض الائمة سوراً من القرآن تحت اسم " ختم القرآن " السور التالية : الفاتحة ، الملك ، يس ، الطارق ، الاعلى — والضحى — الانشراح القدر ، الزلزلة ، التكاثر ، العصر ، الفيل ، قريش ، الماعون ، الكوثر ، الكافرون ، النصر ، المسد ، الاخلاص الفلق ، الناس .

وكان ذلك يتم مع انتشار الاسلام فى انحاء البلاد حتى انتشرت خاتمة القرآن فيما بين المسلمين الصينيين ، ثم ظهرت مجموعة اخرى من " ختم القران تضم بعض الايات من سورتى البقرة وآل عمران وسورة الفتح ويس والملك والجزء الثلاثين من القرآن .

المخطوطات القرآنية

كثرت الجوامع والمساجد مع تطور وانتشار الاسلام واحتاجت الى كميات كبيرة من كتاب الله . فاخذ الائمة والعلماء ينسخون القرآن وكتبا اسلامية اخرى وكذلك فعل المتعلمون وينسخون ويتعلمون سرا ، وكان بعضهم

يقطع المسافات البعيدة حاملين زادهم ومتاعهم للعثور على العلماء ينهلون على أيديهم من مناهل القرآن والدين وتوجد مخطوطات قرآنية في جامع دوسي ببكين تمت كتابتها عام ١٣١٣ هجريا . وكانت الجمعية الاسلامية الصينية قد طبعت خاتمة القرآن وفق اصل لمخطوطة عمرها ٢٠٠ سنة . وجدير بالذكر أن سليمان دوون شيو (١٨٢٨ ـ ١٨٥٨ م) زعيم انتفاضة قومية هوي في مقاطعة يونان لمقاومة حكم أسرة تشينغ الاقطاعي هو اول من قام بطبع القرآن الكريم في الصين بطريق النحت الخشبي في سنة ١٨٦٢ . وعلى أثر ذلك فقد قام الاستاذ العلامة نور الحق ما ليان يوان (١٨٤١ ـ ١٩٠٣) بطبع مختارات من القرآن الكريم مرفقة بالترجمات الصوفية .

المختارات القرآنية المترجمة ـــــ

وقد اختار بعض الائمة العلماء اجزاء من القرآن لترجمتها الى اللغة الصينية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين .

وكانت كراسات (خاتمة القرآن) رائجة فيما بين المسلمين كما ذكرنا في السابق . ثم بدأ بعض الأئمة والعلماء يترجمون القرآن باللغة الصينية حسب الصوت . فاخرجوا (خاتمة القرآن) صوتية سهلة للمسلمين الذين عرفوا اللغة الصينية قليلاً لا العربية حتى اصبح بمقدور بعضهم ان يتلوا الايات القرانية دون حاجة الى المعلمين . فشاعت آنذاك (خاتمة القرآن (خاتمة الكتاب الحقيقي) الصينية . وقد ظهر "كتاب الفرقان"

باللغة الصينية هو اكمل جامعة مترجمة فى وقت مبكر صدر فى بيبنغ .
(بكين حاليا) ، عام ١٩٢٧ . وأتم ترجمته لى تيه تشيخ (غير مسلم)
نقلاً عن اللغة اليابانية . ولذلك ، راجعا الى الانجليزية . فاعتبر كتاب
الفرقان اكمل ترجمة للقرآن منذ دخول الاسلام فى الصين . ولعب دوراً
هاما فى دفع الائمة والعلماء الى مزاولة ترجمة القرآن .

ثم بعد ذلك نظم جى جيومى نظم بعض العلماء . والائمة فى ترجمة
القرآن من جديد فى شنغهاى فى اوئل الثلاثينات . فاتم صدور طبع
القرآن باللغة الصينية عام ١٩٣١ .

ثم انجز الإمام الياس وانغ جينغ تشاى صدور "القرآن المترجم والمفسر"
فى بينبنغ (بكين حاليا) . ثم انهمك فى عمليات ترجمة القرآن سنين طوالاً
حتى اتم صدور الطبعة المترجمة مرة ثانية عام ١٩٤٦ تحت نفس العنوان :
"القرآن المترجم والمفسر" فى شانغهاى .... اعتبرت طبعته الاخيرة
افضل من الطبعة الصادرة عام ١٩٣٢ سواء فى من الترجمة او التفاسير .
واصبحت مرجعا هاما يرجع اليها المسلمون فى الصين .

وظهرت طبعة القرآن المترجم باللغة الويغورية فى منطقة سنجانغ
الويغورية الذاتية الحكم . فاهتم الائمة والعلماء الويغوريون بشرح وترجمة
القرآن مثل الإمام الاكبر شمس الدين (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) قد انجز طبعة
"تفاسير القرآن" الويغورية وهى عمل سهل الفهم بليغ الاسلوب يقبل
المسلمون الويغوريون .

وقد صَدَرَتْ فى بكين سنة ١٩٨١ الترجمةُ الصينية الحديثة للقران.

الكريم التى اتمها المرحوم الاستاذ محمد مكين المتوفى سنة ١٩٧٨ غفر الله له

بُشْرَى عظمة للمسلمين كافةً فى داخل الصين وخارجها ، وسيكون بمقدور كل

مسلم صينىّ ان يَحْصُلَ على نسخته من المُصْحَف الكريم وكذلك كلُ راغبٍ فى

فهم دين الاسلام الحنيف والتعاليم الدينية والعلمية والتاريخية التى

تَضَمَّنَهَا القرآنُ واضحةً جَلِيَّةً فى غيرِ غموضٍ ولا ابْهَامٍ .

سافر الاستاذ محمد مكين مع البعثة الصينية الاولى الى مصر لطلب

العلم فى الازهر الشريف ١٩٣١ م وكنتُ انا من اعضاء هذه البعثة ايضا

ومازال القرآن كتابا مُقَدَّسا لدى المسلمين الصينيين منذ دخوله

للصين نجده لَدَى كَل عائلة زِدْ على ذلك اَنَّ بعضَ الفتيات يَحْمِلْنَ معهن

القرآن الى بيتِ الزوج .....

بقلم الحاج عبدالرحمن ناجونغ
استاذ اللغة العربية وتاريخ الاسلام
جامعة الملك الملجئة بسكين

اثر الاسلام في الحضارة العالمية

(١)

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يأتي على امتي زمان يصبح الرجل فيه مؤمنا و يمسي كافرا الا من عصمه الله بالعلم ."

فالعلم من اصول الاسلام .

فقد جاء الاسلام والناس في كل مكان اسرى للتقاليد و عبيد للخرافات لا يستطيعون ان ينظروا في عقائدهم مستقلين وان يسيروا في الطريق غير الذي رسمه اسلافهم و حددتهم تقاليدهم فتعطلت مهمة العقل و شلت حركة التفكير فكانت نتيجة هذا ان انتشرت الوثنية في الامم و تحيرت القلوب بغلل التقاليد و نضب معين العلم وكثر الذين يتطلبون المجد الكاذب و يكسبون الاموال بغير حق فكثرت الفتن و اختل النظام الاجتماعي و اصبحت الارض موبوءة بالرذائل والاشرار .

ظهر الاسلام والناس على هذه الحال فوضع مبدأ عاما لارشاد الناس الى الصراط المستقيم و اسقاط جميع الفوارق الوهمية التي كانت سببا في تعادي الامم و تناحرها . و هذا المبدأ هو : "يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم . ان الله عليم خبير .." (سورة الحجرات ١٣)

بهذا المبدأ جعل الاسلام جميع الاجناس البشرية متساوية و لم يجعل لاختلاف الوانهم و لغاتهم و اوطانهم تأثيرا في تمييز بعضهم على بعض، فقضى بذلك على التقاليد الفاسدة .

و على هذا الاساس شرع الاسلام يهيب الناس الى العلم و النظر والتفكير ، و يحضهم الى طلب العلم و التعقل في الاشياء مبينا لهم ان

اهمالهم هذه المواهب جعلهم عبيدا للخرافات الفاسدة .

جاء الاسلام على كل هذا باسلوب واضح اذ قال سبحانه تعالى : "ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ." و قال "ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا" و قال . "ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ."

اما ما ورد فى اعقاب الآيات من مثل قول الله تعالى : "افلا تعقلون" و "افلا تتفكرون" ... فلا يحصيه حصر .

و قد جاء فى اول سورة العلق : "اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ."

و مراد العلم عند الاسلام كل ما يرفع الجهل و يكشف صاحبه عن اسرار الوجود والكائنات . قال الله تعالى : "انظروا ماذا فى السموات والارض"، "كأن من آية فى السموات والارض يمرون عليها و هم عنها معرضون".

دعا الاسلام الناس الى لفت الانظار الى السماء والارض والحيوانات والنباتات والمعادن ، ونهى عن المنكر والفحشاء وتصديق الاوهام والظنون وصرح بان اكثر ما عند الناس من العلم ظنون واوهام . فقال تعالى : "ما يتبع اكثرهم الا ظنا وان الظن لا يغنى من الحق شيئا"

اما ما يجب الاعتماد عليه فى الاخذ والنقل فهو العلم المحقق لا الوساوس، فقال تعالى . "قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون .

و بعد ان حرر الاسلام العقل حرم التقليد على النحو الذى رأيناه عاد الى وجوب طلب العلم . قال النبى صلى الله عليه و سلم . "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو فى الصين" و هذا الحديث مضمون حديثين احدهما "الحكمة ضالة المؤمن فحيث

وجدها فهو احق بها رواه الترمذى من حديث ابى هريرة . ورواه غيره بمعناه مع الخلاف فى اللفظ . والحديث الثانى هو . "اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم رواه ابن عدى والبيهقى وابن عبد البر عن انس (راجع الى "حاضر العالم الاسلامى" بالمجلد الاول ص ١٢٠ ــــ للاستاذ المرحوم شكيب ارسلان)

كل هذا يدل على ان العلم من اصول الاسلام وان طلب العلم من اهم مبادئ الاسلام .

(٢)

وبهذا الاصل اخذ المسلمون يطلبون العلم حيثما كان واينما كانوا . ولما تمت لهم الفتوح الكبرى ، استقر بهم المقام فى البلاد المجاورة فى العراق وسوريا ، مصر والمغرب والاندلس وايران وخراسات وغيرها . وكان من الطبيعى ان يهتموا بما كانت عليه الشعوب من الحضارة القديمة والمعرفة الواسعة ، وذلك على ضوء تعليمات الاسلام ومبادئها وجريا مع سنة التطور للامم لا سيما انهم وجدوا الفرس على قسط كبير من الحضارة ووجدوا السريان قد نقلوا تراث اليونان معظمها الى لغاتهم ــــ وخاصة اللغة الآرامية ــــ وانشأوا لهم مدارس قوية للثقافة اليونانية فى الرها ونصيبين وحران وجندسابور ، فدفعتهم رغبة ملحة وشوق عظيم الى نقل ما خلفته الامم قبلهم من تراث فكرى وعلوم مختلفة . وكان فى عصر الدولة الاموية بدأ المسلمون العرب يتصلون بالسريان ، شهدوا مدارسهم فى انطاكية والرها . فلما كان عصر العباسية الاول تزداد اقبال المسلمين فى دراسة العلوم فى هذه المدارس . فنقلوا كتبا فى الطب والفلك عن السريانية ، ونقلوا المؤلفات الفارسية والسريانية والهندية الى العربية . وكانت الترجمة فى بداية الامر اعمالا حرة يقوم بها

افراد من المسلمين ، من اليهود و النصارى .

فلما تولى الخليفة المأمون الحكم سلك مسلكا جديدا بانشاء بيت الحكمة المشهور فى بغداد للترجمة و الدراسة و البحث على مثال مدارس السريان - فارسل الى امبراطور الدولة البيزنطية يسأله ان يبعث اليه ما يختار من الكتب المخطوطة فاجابه الى ذلك .

كما كان المسلمون العرب قد جدوا فى طلب الكتب و قاموا برحلات علمية لطلب العلم و جلب الكتب . وكان كل ما جلبوه من الكتب فى عصر العباسية قد ارسلت الى بغداد كأنها كنوز ثمينة للتراث العلمى و بحر عظيم من الافكار البشرية .

امر المأمون بنقل الكتب الى العربية ، و جعل يحرض على قراءة تلك الكتب المترجمة ، واقتدى به كثير من رجال الدولة و اخلافه المباشرون . فتقاطر المترجمون من انحاء البلاد الاسلامية شرقا و غربا الى بغداد و ترجموا من اليونانية و الفارسية و الهندية الى اللغة العربية . و اقبل المسلمون على هذه الكتب و البحث فيها ايما اقبال فاصبحت الترجمة منذ عصر المأمون من العمل الذى باشرته الدولة الاسلامية . و قد استطاع المسلمون فى مدى قرنين من الزمن ان يصبحوا الورثة الفكريين .

و لا ريب ان مثل هذه الحركة — الترجمة العلمية التى ظهرت فى الدولة الاسلامية العربية فى القرون الوسطى لجديرة بالتأريخ و التجليد هو حركة علمية لا مثيل لها فى الحضارة الاوربية . و لكن يريد بعض المؤرخين الغربيين ان ينقصوا مآثر المسلمين العظيمة فى حضارة الاسلام ، زعما بان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا و اخذوا و قلدوا ، و انكارا بان المسلمين قد ابتكروا علوما و ساهموا فى الحضارة البشرية مساهمة عظيمة بابداع حضارة زاهرة خاصة لهم .

و اما ما ترجمته حضارة الاسلام من الكتب القديمة و ما اخذته من الغير من العلوم

المختلفة ، فهذا شأن الحضارات البشرية باجمعها ذلك ان يأخذ بعضها عن بعض، ويكمل بعضها بعضا . واين هى الحضارة التى ابدعت ولم تنقل في تاريخ البشرية ؟ فالحضارة مشتركة بين جميع الامم فكل امة نقلت من غيرها وابدعت بنفسها . ولم توجد قط فى التاريخ حضارة تفردت بالنقل والاختراع وتفردت بالابداع والاختراع .

واما قولهم بان المسلمين لم يبتكروا ، فان التاريخ الواقع يبرهن على عكس ذلك . فكان للمسلمين فى القرون الوسطى علوم ابتكروها و حقائق كشفوها و آراء ونظريات سبقوا اليها . فان حركة الترجمة قد تهيأت للمسلمين تصحيح اغلاط القدماء فى كثير من المواضع كما اضافوا من عندهم اشياء كثيرة . كل هذا الحق قد ظهر ظهور الشمس الوضاحة على كبد السماء واثبتها التاريخ اثباتا لا ينكره احد من المؤرخين المنصفين .

ان الاسلام قد اثر فى الثقافة الاسلامية العربية تأثيرا كبيرا ، ذلك ان القرآن الكريم والحديث الشريف عربيان . فكان الاسلام اكبر البواعث على نشر هذه الثقافة والعناية بها . دخل اللحن فى العربية فخاف المسلمون على القرآن ان يتسرب اليه لحن ، فقام بعض العلماء المسلمين بدراسة القرآن من حيث القواعد . فاخترعوا علم النحو والصرف ، وقسموا اللغة العربية ثلاثة اقسام وهى اسم وفعل و حرف ، واستنبطوا منها المشتقات وهى اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم الآلة واسم المكان والزمان --- الخ . ووضعوا من الافعال لواحق وهى المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ثم وضعوا تذكير الاسماء وتأنيثها ... وهكذا يتم علم النحو والصرف فى

اواخر القرن الثامن من الميلاد . ومن ثم سهل على الناس ان يتعلموا اللغة العربية وكثرت، وتكلمت لذلك كتب القواعد العربية . وروى انها اكثر من ثلاثمائة كتاب في القرنين الثامن والتاسع . كل هذا يرجع فضله الى القرآن الكريم .

ثم كان المسلمون يحتاجون الى الفاظ علمية عند ما كان يباشرون الترجمة . فبدأوا اولا بخدمة اللغة ووضعوا كمية كبيرة من الالفاظ العلمية والتعابير العلمية في اللغة العربية . فما لبثت اللغة العربية في القرن التاسع ان تصبح لغة علمية بعد ان كانت ادبية شعرية فانتجت وطورت حضارة جديدة وهي الحضارة الاسلامية .

وبتطور اللغة العربية واقبال المسلمين على الدراسة والبحث كثر المؤلفون المسلمون ، وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم . وكان منهم العرب والفرس والسريان والاقباط وغيرهم من الملل الاسلامية في انحاء العالم المتمدن في العراق والشام ومصر والمغرب والاندلس وفارس وخراسان والهند . وما وراء النهر وغيرها . وقد حوت مؤلفات المسلمين البحث والدراسة في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان . من الآداب والعلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة .

تعددت مؤلفاتهم حتى اصبحت تعد بعشرات الالوف ومن مؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات امثال ابن جرير الطبري وابن حزم والرازي والسيوطي وابن سينا وغيرهم .

وكان العرب وسائر الشعوب الاسلامية قد بلغوا شأوا بعيدا في علم التاريخ وهم ثقات فيما يروونه ولا سيما عما شاهدوه في زمانهم فتواريخ المسلمين عمدة لا يستغنى عنها من اجل معرفة تاريخ القرون الوسطى . كتاريخ ابن جرير الطبري المتوفى ٩٢٣ م وهو اوسع واعظم تأليف في تاريخ الدولة الاسلامية في القرون الثلاثة . وكتاب مروج الذهب للمسعودي المتوفى ٣٠٠ ١ م . وقد الف ابن

الاثير المتوفى سنة ٢٢٣٢م كتابه المسمى "الكامل فى التاريخ" والف ابو الفداء المتوفى سنة ١٣٣١م كتابه المسمى "المختصر فى التاريخ البشرى" والف ابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦م كتابه المسمى "ايام العرب والعجم والبربر"، وغيرهم من المؤلفين والعلماء والادباء والشعراء الذين يحصيهم حصر .

وكان المسلمون قد بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس والاسباب فى ذلك كثيرة اولها الحج لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقاليمهم يحجون الى مكة . والحج فريضة على المسلم اذا استطاع ذلك . والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها اتساع تجارة العرب وقد بلغ تجار العرب فى اسفارهم خلال القرون الوسطى بلاد الصين برا وبحرا وجزيرة زنجبار واقاصى سواحل افريقية الجنوبية واوغلوا فى روسيا شمالا ووصلوا الى سواحل المحيط الاطلسى غربا . ورجع اولئك التجار بكثير من اخبار الاقطار والشعوب التى زاروها ، فاثارت هذه الاخبار رغبة واسعة فى معرفة هذه الاقطار وشعوبها . ثالثها الرحلة فى طلب العلم فقد كان المسلمون يرحلون فى طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق . ولذلك كان اول ما الفه المسلمون فى الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية . واول من الف فى ذلك رواة الادب والشعر كالاصمعى والسكونى ثم اللغوانى بلاد العرب كلها كما فعل الهمدانى فى جزيرة العرب وابو الاشعث الكندى فى جبال تهامة وغيره . وكان التاجر سليمان السيرافى اول من سافر الى الشرق اذ سافر غير مرة الى الهند والصين وقد دون كتابا مجهول الاسم فى وصف رحلته فى منتصف القرن التاسع الميلادى (٨٥١م) ، وهذا الكتاب اقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند .

ويعد الشيخ ابو زيد البلخى اول من دون الجغرافية من المسلمين وقد الف

فى اهل القرن العاشر كتابا فى الجغرافية سماه "صور الاقاليم" ثم الف ابن الفقيه الهمدانى والمقدسى والمسعودى وغيرهم وقد رحل المسعودى رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصى الهند وذكر ما شاهده وهبوه فى كتبه الجغرافية والتاريخية وجميع هؤلاء من اهل القرن الرابع من الهجرة .

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ١٢٢٩م من كبار الجغرافيين الاسلاميين بالشرق وقد الف كتابه المشهور "معجم البلدان" الذى يعتبر اعظم قاموس جغرافى فى العصور الوسطى ، لانه كنز معلومات جغرافية واسعة وذلك فضلا عما فيه من معلومات تاريخية وادبية .

وابن بطوطة المتوفى ٧٧٩م هو من اشهر رحالة فى تاريخ العرب ولد فى طنجة سنة ٧٠٢ وخرج من بلده سنة ٧٢٥ للحج ، ثم اخذ فى الرحلة فبدأ بالحجاز فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى فبخارى ... ثم الى الهند والصين . وقد دون اسفاره فى كتاب "رحلة ابن بطوطة" وسجل فيه ما شاهده من الغرائب والعجائب والعادات واحوال المدن فى بلاد الصين .

ان المسلمين قد انشأوا المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية واولها مرصد جندسابور فى اوائل القرن التاسع الميلادى ثم انشأ المأمون دارا للرصد فى بغداد لدراسة حركات الاجرام السماوية .

ولم يقم الفلكيون المسلمون برصد منظم لحركات الاجرام السماوية فحسب بل انهم حققوا ووصلوا الى نتائج دقيقة جدا لكل العناصر الرئيسية التى ذكرها بطليموس فى "المجسطى" .

ويعد ابو الريحان البيرونى (٩٧٢ — ٩٨٤م) اعمق المفكرين

المسلمين فى ميدان العلوم الفلكية والطبيعية . فالف كتابا فى الفلك سماه كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية " وهو دراسة فى تقاويم الشعوب القديمة .

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامى فى الرياضيات نقلهم الحساب الهندى والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم . فالعرب يسمونها ارقاما هندية لانهم نقلوها عن الهند والافرنج يسمونها عربية لانهم اخذوها عن العرب واول من تناول تلك الارقام من الهند ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى .

كان الخوارزمى (٧٨٠ ـ ٨٥٠م) شخصية بارزة فى تاريخ الرياضيات العربية فقد ترك اثرا كبيرا فانه الف اقدم كتاب فى علم الجبر وهو معروف بكتاب "الجبر والمقابلة" وقد ترجم هذا الكتاب فى القرن الثانى عشر على اعتبار انه الكتاب الرئيسى الذى يستعمل فى الجامعات الاوربية وقد ساعد هذا الكتاب فى ادخال علم الجبر الى اوربا وادخال اسم الجبر اليها ايضا .

وقد اسهم المسلمون فى علم الطب مساهمة عظيمة . وربما كان ابو بكر محمد بن زكرياء الرازى (٨٦٤ ـ ٩٢٢) اعظم الاطباء المسلمين واكثرهم انتاجا وابتكارا فى التأليف . ومن اشهر مؤلفاته "كتاب المنصورى" وهو كتاب خالد الذكر فى عشر مجلدات تمثل اهم مخترعاته وتطبيقاته فى علم الطب ومن بين رسائله مقالاته التى تشمل موضوعا واحدا وهو رسالة فى موضع "الجدرى والحصبة" وهو اقدم رسالة من نوعها . وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى اللاتينية واللغات الغربية الاخرى .

وكان اشهر شخصية فى علم الطب العربى بعد الرازى هو ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) فكان طبيبا وفيلسوفا ولغويا وشاعرا . ومعظم مؤلفاته كتبت باللغة العربية واهمها "القانون فى الطب" وقد نشر نصه العربى فى سنة ١٥٩٣ .

فكان بذلك من اقدم الكتب الطبية التي طبعت و قد نقل الى اللاتينية في القرن الثاني عشر . ولم تكد تظهر هذه الترجمة حتى اصبحت محتويات الكتاب اشهر مرجع في علم الطب في ذلك العصر .

وكان منهاج المسلمين في بحوثهم هو الاسلوب التجربي و الطريق التطبيقي . وكانما يعتبرون الهندسة و العلوم الرياضية ادوات و معدات للعلوم الطبيعية . ولذا اهتدوا الى حلول المسائل من الطريق التجربي و القطر بواسطة الالات . وهذا هو الذي ادى بالمسلمين لان يكونوا اول الواضعين لعلم الكيمياء ، و المكتشفين الكثير من آلات التقطير و التصعيد و الصهر و التصفية وغيرها .

و من اهم المآثر للمسلمين نشر صناعة الورق . فقد اخذ المسلمون هذه الصناعة من الصينيين فقد انشىء المصنع الاول للورق في مدينة سمرقند في منتصف القرن الثامن من الميلاد و ما لبث ان انتشرت صناعة الورق في جميع الاقطار الاسلامية ثم انتقلت الى اوربا الغربية . و بفضل انتشار صناعة الورق في اوربا وانتقال العلوم الاسلامية العربية اليها ظهر عصر نهضة اوربا و تطورت العلوم و الثقافات و الصناعات فيها . والفضل في ذلك يرجع الى الصينيين و العرب .

كان للمسلمين فضل عظيم على الحضارة ، و قد اثبت المؤرخون الغربيون انه لولا العرب لضاع اكثر العلوم القديمة ، و لتأخرت نهضة اوربا الحديثة سنين طويلة . ففي القرون الوسطى التي سطعت فيها حضارة العرب في الشرق و في الاندلس كانت اوربا غارقة في الجهل . وكانت مراكز الثقافة في الغرب ابراجا يسكنها امراء اقطاعيون متوحشون . فكان اكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان

الجاهلون الذين كانوا يقضون اوقاتهم فى اديارهم ليكتبوا كتب الاقدمين .

مضت مدة طويلة قبل شعور اوربة بهمجيتها .. لم يبد ميلها الى العالم الا فى القرنين الحادى عشر و الثانى عشر من الميلاد .. فلما ظهر فيها اناس رأوا ان يرفعوا اكفان الجهل عنهم ولّوا وجوههم شطر العرب .كما ان ازدهار الاندلس الثقافى وعمرانها كانا يشوقان الطلاب والمستشفين والسياح الى زيارتها لتلقى العلوم و للاستشفاء و من ثم كثر الاختلاط بين الاوربيين والعرب .. وقد علق العلامة سيديو على ذلك فى كتابه "تاريخ العرب" بقوله : "هذا الاختلاط الثقافى والاقتصادى والسياسى بين العرب و بين اوربا جعل الحضارة العربية تتعدى اسبانيا و تنساب الى اعماق العالم المسيحى ،و بلغ من نفوذ هذه الحضارة الى الاسبان و لا سيما الذين كانوا تحت الحكم الاسلامى ،اختاروا الجنسية العربية ولغتها . و ساهموا فى الآداب العربية و توافدوا الى جامعاتها الكبرى .

و قد انشئت كلية المترجمين فى مدينة طليطلة و قامت هذه الكلية بترجمة اشهر المؤلفات العربية . فاصبحت بذلك طليطلة منذ القرن الثانى عشر المورد العذب لرواد الثقافة العربية من اقصى اوربا . ولم يتوان الغرب فى امر تلك الترجمة فى القرون الثانى عشر و الثالث عشر و الرابع عشر و الخامس عشر من الميلاد ولم يقتصر فى تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى و ابى القاسم و ابن سينا و ابن رشد و غيرهم الى اللغة اللاتينية ، بل نقلت اليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ككتب جالينوس و بقراط و افلاطون و ارسطو و اقليدى و ارخميدس و بطليموس .

وكان الفرنسيون انشأوا مدرسة طبية فى مونبلييه (١٢٢٠) قوامها بعض المهاجرين من علماء الاندلس ثم اصبحت جامعة وكان فى هذه الجامعة

وفي مدارس اخرى في فرنسا وايطاليا تدرس فيها اللغة العربية والعلوم الاسلامية.

وكانت الدراسات العربية ظلت جزءا من مناهج جامعات كثيرة منها جامعة اكسفورد وجامعة باريس خلال القرن الرابع عشر ، استمر الاوربيون يهتمون الى عهد قريب باصدار نفائس الكتب العربية ، وقد افضى كل ذلك الى ان العلم الذى كان محصورا فى طبقة رجال الدين وهو لا يكاد يتعدى نطاق الابحاث الدينية ، قد اصبح مشاعا للناس وطليقا تغذيه موضوعات الحضارة العربية ويرويه ما نقله العرب عن الدنيات القديمة .

وقد قال قوستاف لوبون العلامة الفرنسى فى كتابه "حضارة العرب" (Sedillot: L, Histoire des Arabes) "ما من مؤلف اوربى حتى القرن الخامس عشر الا وعلمه منقول عن علوم العرب" ثم ذكر عددا من علماء اوربا فى ذلك الزمن وقال: "انهم كلهم اما متتلمذون للعرب او نقلة لكتبهم . وان الكتب المترجمة من العربية ولا سيما الكتب العلمية منها كانت - الى مدى بعيد - الاساس الذى قام عليه التعليم فى جامعات اوربا نحو خمسة قرون وفى بعض العلوم ظل تأثير العرب فى الغرب ظاهرا الى عهد قريب . ففى اواخر الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا ما تزال تناقش فى جامعة مونبلييه فى فرنسا . وكان ابن رشد منذ القرن الثالث عشر والرابع عشر المرجع الاعلى للفلسفة فى الجامعات الفرنسية والجامعات الاخرى فى ايطاليا وغيرها".

لقد اثرا الشعبان الغربى والعربى بتعليم بعضهما من بعض خلال اتصالاتهما تأثيرا متبادلا مهما على ثقافة كل منهما . وكان للمسهمات التى قدمها الوطن العربى للصين قيمة هائلة . فالصينيون كالاوربيين تعلموا من الفلكيين العرب الاجلاء الذين اطلقوا على الكثير من النجوم الاسماء التى

تدعى بها حتى الآن ، فسروا الافكار العلمية الاولى للنظام الشمسى . وقد اهدى جمال الدين فى عام ١٢٦٧ الى كوبلاى خان فى بكين سبع ادوات فلكية ونوعا جديدا من الزيج عرف بالزيج الدائم . واستخدم الزيج الاسلامى جنبا الى جنب مع الزيج الصينى خلال عهد اسرة مينغ الملكية (١٣٦٨ـ ١٦٤٤م) .

اما الطب العربى قد ظل راسخا الى وقت طويل بدون نظير وعندما وقف العالم المسيحى فى القرن الرابع عشر عاجزا امام وباء الطاعون الاسود معتبرا اياه قدرا من الله ، قام الطبيب العربى ابن الخطيب مدافعا عن نظرية العدوى . وقد انشىء بامر من كوبلاى خان مركز للطب الاسلامى ودائرة للعقاقير الاسلامية فى تاتوا (بكين) . والجدير بالذكر ان دستورا للادوية ترجم من الفارسية الى الصينية خلال تلك الفترة ونشر فى اوائل عهد اسرة مينغ الملكة . ولا تزال اجزاء منه موجودة فى مكتبة بكين الى اليوم .

يمكننا ان نرى من المعلومات التى كلمناها آنفا ، ان الاسلام فى التاريخ ساهم مساهمات هامة للحضارة العالمية ولكن نحن المسلمين لن نكتفى بالعزة والانجازات لاجدادنا بل نرجو من الاخوان المسلمين تقدما متواصلا فى الفترة الجديدة لدخول الدين الاسلامى فى قرنه الخامس عشر تمشيا مع القرآن الكريم والحديث النبوى لكى نؤدى لخدمة الانسان اكثر المساهمات واحدث المثمرات .

انتهت كلمتى .

ايها الاساتذة الكرام ، نتمنى - نحن المسلمين الصينيين - ان يعود الاسلام فى هذا العهد الجديد كما بدأ فى عهد النبى موفوع

العلاقات بين الصين والعرب فى القرون الوسطى

— الحاج عبد الرحمن ناجون

استاذ اللغة العربية والتاريخ الاسلامى بجامعة اللغات الاجنبية ببكين

١ — العلاقة فى القديم

ان علاقة بين الصين وبين العالم العربى لم تكن وليدة لعهد الاسلام بل ترجع الى تاريخ بعيد جدّا . وكانت عراها لم تكن اوثق كما كان فى زمن الاسلام لكن العلاقة موجودة على طريق غير مباشرة اولا ثم تطورت الى علاقة مباشرة منذ القرن الخامس من الميلاد .

وقد بعث الامبراطور " وودى " فى سنة ١٣٦ ق . م تشانغ تشين سفيرا له الى الممالك فى آسيا الوسطى لايجاد رابطة ودية معها وزار فى اثناء سفره ستّا وثلاثين مملكة صغيرة كانت او كبيرة .

ثم سافر " كانغ يين " بامر " بان جاو " القائد الصينى الى الغرب فى سنة ٩٧ م .

و زار بلاد فارس والعراق ولما بلغ سواحل الخليج العربى (الفارسى) لم يتمكن من الإبحار الى الغرب لعدم البواخر وشدة العواصف والامواج فى البحر فعاد باخبار وافرة من العالم العربى .

ومما لا شك فيه ان سفر تشانغ تشين وكانغ يين قد فتح بابا

جديدا للسفر برّاً من الصين الى البلدان العربية فى غربى آسيا ، وكانت نتيجتها ان اتصلت الصين بطريق البرّ مباشرة وبالعراق وسوريا بواسطة ايران ، واما العرب فكانوا قد عرفوا الصين من زمن قديم . وقد رُوِى ان الرسولَ محمد قال : " اطلبوا العلم ولو بالصين . " مما يدل على ان محمد قد عرف ان الصين دولة شرقية كبيرة وذاتَ حضارةٍ راقية .

وكانت التجارة بين الصين والهند وموانئ البحر الابيض قابضةً على يد العرب والصينيين فى قديم الزمان واصبح سيرافُ على الخليج العربى (الفارسى) مركزا هاما لتوزيع البضائع الصينية فى ايران وبلاد العرب .

وقد ذكر المؤرخ العربى الشهير المسعودى فى كتابه " مروج الذهب " ان العلاقة التجارية كانت قائمة مباشرة بين الصين وبين العرب . وكانت السفن الصينية تبحر الى الخليج العربى (الفارسى) ثم تدخل فى نهر الفرات الى الحيرة بالقرب من انقاض المدينة القديمة " بابل " وذلك فى عهد مملكة الحيرة اى قبل الاسلام بمدة طويلة .

ومن المدن التى كانت البضائع تصدّر منها الى الصين عن طريق البحر الاحمر مدينة اسكندرية ، فانها ورثت اهميتها التجارية من السوريين والفنيقيين اذ كانت تحت سيطرة امبراطورية البيزنطية بلا تزاع مدينة الصناعة والحرفية .

اما تجارة الحرير بين الصين وبين الغرب فكانت تمرّ بايران وبلاد العراق آتية من وسط آسيا ولذا كان هذا الطريق معروفا بطريق الحرير

ومنذ اسرة " هان الملكية " ظلت هذه التجارة عدة قرون .

وقال المؤرخون العرب ان بلادَ السَلَم كانت مركزَ التجارة البرى بين بلاد العرب وبين الصين ، لانها وقعت فى موقعٍ مركزى بين المدن المتفرقة فى آسيا الصغرى وقبرص ومصر وأنَّها قد تملكت من زمانٍ بعيد جميع الوسائل التى تمكنها من احتكار تجارة الاحجار الكريمة .

٢ ـ العلاقة بينهما فى القرون الوسطى

لقد اتسعت التجارة بين الصين وبين بلاد العرب منذ القرن السادس الميلادى وزاد اتساعها منذ القرن السابع حتى القرن الرابع عشرَ الميلادى ، وقد سلكت التجارة الصينية العربية طريقين رئيسيين فى القرون الوسطى :

احدهما كان طريقا برياً من بغداد الى تشانغان عبرَ ايران وسط آسيا حيث طريق الحرير المعروف ، وذلك كما كان فى عهد هان الملكية .

اما الطريق الآخر فكان يبدأ كذلك من بغداد ويمرّ الخليج العربى (الفارسى) والمحيط الهندى ثم يجتاز شبه جزيرة الملايو وينتهى فى كانتون وكثيرا ما كانت تُرى فى مدينة بغداد عاصمة العباسيين السفن والبضائع الصينية وعلى الاخص ، الحرير والخزف الصينى والورق والمسك حيث تباع فى سوق خاصة للبضائع الصينية وفى تشانغان كان التجار العرب والفرس يعرضون بضائعهم فى " السوق العربية " .

واقوى الادلة التى تدل على نفوذ الصين البحرى بالخليج العربى (الفارسى) فى القرن التاسع من الميلاد وجودُ فلوس الصين بسيراف ، ولقد

ذكر ابو زيد الحسن انّ هذه الفلوس مصنوعة من نحاس واخلاط من غيره ومعجونة به وفى وسط الفلس ثقب واسع يدخل الخيط فيه وقيمة كل الف فلس مثقال من ذهب وينظم الخيط فيها الف فلس فاذا ابتاع المبتاع ضياعا او بغـــلا فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن وهى موجودة فى سيراف وعليها نقش لكتابتهم .

وكانت السفن العربية فى عهد اسرة تانغ الملكية ترسو بشكل رسمى فى كانتون وخلال عهد اسرة سونغ الجنوبية الملكية (١١٢٧ ـ ١٢٧٩ م) كانت معظم التجارة البحرية تذهب الى هانتشو فى مقاطعة تشكيانغ ، اما خلال عهد اسرة يوان الملكية (١٢٨٠ ـ ١٣٦٨ م) فكانت تذهب الى تشوانشو فى مقاطعة فوكيان وكان هذا الميناء مزدهرا حتى ان الرحالة العربى المشهور ابن بطوطة الذى زاره فى القرن الرابع عشر دعاه " المركز التجارى للعالم " ومن ابرز ما كان يجلبه التجار العرب للصين الياقوت والجواهر واللآلى والاحجار الكريمة والعطور والعقاقير .

لقد استقر كثير من التجار العرب فى الموانى على طول ساحل الصين الشرقى . وكان بعضهم يأتى فى فترات مختلفة من مراكزهم التجارية فـى مختلف الجزر ومحلات تجارية فى الصين نفسها وكانوا قد كسبوا ثروة طائلة فى الصين .

٣ ـ العلاقة الدبلوماسية بينهما فى القرون الوسطى

كانت العلاقة الدبلوماسية بينهما فى القرون الوسطى (السفارات) قد بدأت فى زمن الخلفاء الراشدين ففى عام ٦٥١ م قام اول اتصال دبلوماسى بين الصين والامبراطورية العربية وكان عبارة عن بعثة ارسلها الخليفة عثمان ابن عفان للامبراطور "كاوتسنغ" من اسرة تانغ الملكية . ويتضمن تاريخ الاسرة الحاكمة الصينية فى ذلك العهد فصلا يعرف بـ " سجل تاشيه " (كتاب تاريخ العرب) يصف جغرافية ومنتجات العالم العربى .

ومن تاريخ "تانغ" نعرف ان سبع عشرة سفارة الى عاصمة الصين فى زمن الامويين .

وبقيام الدولة العباسية فى سنة ٧٤٩ م بدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء بغداد واباطرة الصين ، واهم السفارات التى وقعت هذا العهد ما كان مبعوثا من قبل ابى العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية وابى جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد وهارون الرشيد بطل قصص "الف ليلة وليلة" وكان العباسيون فى تاريخ الصين معروفين باسم " خيى تاشى " اى العرب ذوى الملابس السود تميزوا عن الامويين الذين عرفوا باسم " بيى تاشى " اى العرب ذوى الملابس البيض وقد سجل تاريخ الصين زهاء ٣٧ بعثة عربية خلال اسرة تانغ الملكية (٦١٨ ـ ٩٠٧ م) وقد ذكر ابن زيد الحسن فى كتابه ان رفيقه ابن وهب قد قدم الى عاصمة الصين آنذاك تشانغان (حاليا سيآن) وانه قد حظى بمقابلة الامبراطور شى توسنغ (فى القرن

التاسع) حيث لقى منه الاكرام واغدق عليه الكثير من الهدايا كما منحه امتيازا خاصا بالصودة الى كانتون ممتطيا حصان البريد .

وكانت السفارات العربية الى الصين فى اسرة " تسونغ " اكبر مما كان فى اسرة تانغ . فقد ورد فى المؤلفات التاريخية الصينية زهاء ٤٩ بعثة عربية خلال عهد اسرة تسونغ (٩٦٧ ـ ١١٦٨ م) فكانت ارسلت بعثة واحدة لكل اربع سنوات تقريبا .

ومعظم هذه السفارات كانت فى قصد تحسين التجارة بين الصين والعرب فكانت اغلبها جاءت من قبل التجار العرب انفسهم او من اصحاب السفن التجارية العربية او من حكام اوامراء الولايات التابعة للدولة العربية . ويظهر ان اكثرها قد اختارت طريق البحر .

٤ ـ دخول الدين الاسلامى الى الصين

قال النبى محمد عليه الصلاة والسلام : " اطلبوا العلم ولو بالصين . " واتباعا لهذا الحديث الشريف اوفد الخلفاء منذ وبيهم الدبلوماسيين الى الصين لقد قلنا ان الخليفة عثمان بن عفان قد بعث الوفد الاول الى مدينة تشانغان عاصمة الصين آنذاك فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣١ هـ الموافق لـ ٢٥ اغسطس سنة ٦٥١ من الميلاد فى عهد اسرة تانغ ، كما قوبل بالاستقبال من قبل امبراطور الصين ايذانا بتدشين جسر الصداقة بين الصين وبين العرب . وقد حقق المؤرخون هذا الواقع التاريخى . ويتفق معه معظم المؤرخين الصينيين فيقول كتاب تاريخ تانغ القديم ان وفدا من العرب قد وصلوا الى

عاصمة الصين عن طريق البرّ فى سنة ٦٥١ من الميلاد .

واما كتاب " اصل الاسلام فى الصين " الذى صدر فى سنة ١٦٦٢ من الميلاد فيقول : ان الاسلام وصل الى الصين فى سنة ٦٢٨ من الميلاد الموافق للسنة السادسة من الهجرة . وذلك على يد الصحابة سعد بن وقّاص والمراد به هو سعد بن ابى وقّاص بطل واقعة القادسية . وهذا لا يوافق الواقع التاريخى على الاطلاق . لان الصحابة سعد بن ابى وقّاص لم يذهب الى الصين ابدا طول عمره فان حياته معروفة فى تاريخ الاسلام . فكان القائد الاعلى فى واقعة القادسية وبقى محايدا حينما ظهر النزاع بين علّى ومعاوية رض الله عنهما ، ثم مات بالعقيق على عشرة اميال من المدينة المنوّرة فى الثمانين من عمره المديد فى سنة ٥٤ هجريا .

ويقول كتاب " اصل الاسلام فى الصين " : ان سعد بن وقّاص قد قبل حفاوة فخمة من الامبراطور الصينى فانشئ مسجد كبير فى كانتون بامره ومات سعد بن وقّاص بكانتون ودفن فى المدينة وبنى ضريح ضخم كبير بها . ولكن الواقع غير ذلك ، فان مؤسس المسجد الذى مات بكانتون ودفن بها غير سعد بن ابى وقّاص المعروف بل هو رجل آخر لا يزال مجهولا عند المؤرخين . وليس اية علامة بعصر النبى محمد عليه السلام ولا عصر الخلفاء الراشدين .

ومن الممكن ان احدا آخر من كبار العرب قد سافر الى الصين فمات هناك ودفن فيها ويظهر ان ذلك قد يعود الى القرن الثانى عشر فى

اسرة سونغ الملكية الجنوبية . ويظهر انه زعيما من زعماء العرب المسلمين كان له مكانة عظيمة لدى الامبراطور وفى اعين المسلمين هناك ولذلك كانوا ولا يزالون يعظمون قبره .

ومع ذلك فلا شك فى ان وصول الاسلام الى الصين بحرا اسبق من وصوله اليها برا . لان التجارة البحرية التى بدات قبل النبى محمد عليه السلام تساعد على اتصال الاسلام الى موانىء الصين الجنوبية التى كان العرب يترددون عليها ولو بصفة غير رسمية . واما وفد العرب الذى وصل الى العاصمة رسميا فكان قد حدث فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه فى سنة ٦٥١ . وكانت قوة العرب العسكرية آنذاك قد وصلت الى اواسط آسيا من ناحية والى السند من ناحية اخرى ، ثم الاحوال التى ذكرها هذا الوفد لدى امبراطور الصين عن بلاد العرب صحيحة وتوافق واقع التاريخ . فكلمة " امير المؤمنين " ذكرت لاول مرة فى الكتب الصينية بصورة محرفة . وقال اعضاء الوفد ان ملكهم يقال له امير المؤمنين والخ .

وتروى الكتب الصينية ما يأتى " ان الصينيين قد انشأوا مساجد لربان العرب المسلمين فى موانىء الصين الجنوبية ليصلوا فيها واليها اصحاب المراكب ليقدموا النذور اذا مروا هناك .

٥ — تأثير علوم العرب فى الصين

ومنذ القرن السابع جاء المسلمون العرب الى الصين للتجارة عن طريق البحر والبر حسب ما جاء فى الروايات التاريخية . وبفضل استيطان بعض

هؤلاء المسلمين القادمين فى الصين واعتناق بعض الصينيين للاسلام فقد انتشر الاسلام خلال اكثر من الف واربعمائة سنة وقد قدم المسلمون الصينيون مساهماتهم فى مختلف المجالات • دعونا نتحدث اولا عن منجزاتهم العلمية وحماستهم فى استقصاء المعارف •

قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم التى يتخصّص بها المسلمون العرب ادخالها الى الصين وخاصّة علم الطبّ والرياضيات والفلك • اما الادوية والوصفات والمعلومات الطبية الاخرى التى نقلوها الى الصين فقد ذكرت فى صفحات كثيرة من كتاب " اصناف العقاقير الصينية " الذى طبع فى القرن الثانى عشر وكتاب " الموسوعة الطبية الصينية " الذى طبع فى القرن السادس عشر • كان المسلمون الصينيون يقومون برصد احوال الجوّ بمساعدة علم الفلك العربى الفارسى وفى القرن الثالث عشر انشئت ادارة اسلامية خاصّة بمراقبة الارصاد الجوية و وضع التقويم الصينى ، وكان التقويم الهجرى مرجعا لوضع التقويم الصينى على مدار اربعمائة سنة ابتداء من اواسط القرن الثالث عشر • وفى عام ١٣٨٢ احتاز احد المسلمين نجاحا باهرا فى ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافية والفلك مما كسب المكافاة من قبل بلاط الامبراطور • وحيث ان الرياضيات هى اساس علم الفلك فقد انتظمت الرياضية العربية هى الاخرى الى الصين فى الوقت نفسه • وقد اثبتت ذلك السجلات التاريخية فى عهد اسرة يوان المغولية • ومن جراء ذلك انبثقت اعداد كبيرة من الاكفاء فى علم والفلك الرياضيات من بين المسلمين الصينيين فى عهد اسرتى

يران ومينغ .

وقد تعلّم الصينيون من الفلكيين العرب الذين التقوا على الكثير من النجوم الاسماء التى تدعى لها حتى الآن . وفسّروا الافكار العلمية الاولى . للنظام الشمسى وقد اهدى جمال الدين فى عام ١٦٦٧ م الى كوبلاى خان فى بكين سبع ادوات فلكية تدعى لها بالعربية حتى الآن . وهى :

١ ـ ذات حلق

٢ ـ ذات سموت

٣ ـ لخفة معدّج

٤ ـ لخفة مستوى

٥ ـ كرة سماء

٦ ـ كرة ارض

٧ ـ استولات

كما اهدى اليه جمال الدين نوعا جديدا من الزيج عرف بـ " الزيج الدائم " واستخدم الزيج العربى جنبا الى جنب مع الزيج الصينى خلال اسرة مينغ الملكية (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤ م) .

٦ ـ تأثير الثقافة الصينية فى العالم العربى

ـــ صناعة الورق

لقد اظهر العرب فى الازمنة القديمة اعجابهم بالثقافة الصينية وتقديرهم لها ، ففى القرن الثامن وصل فنّ صناعة الورق الى بلاد الخلافة وانشىء

فى مدينة بغداد المصنع الاول للورق عام ٧٩٤م كما دخلت الطباعة هناك فى نفس الفترة ، ثم انتقلت صناعة الورق الى دمشق ثم الى القاهرة والاسكندرية ، ثم الى صقلية ثم الى اسبانيا و اوربا ، وبانتشار صناعة الورق فى اوربا تطورت العلوم والثقافات فى اوربا ، والفضل فى ذلك يرجع الى العمال الصينيين ، والى العرب ، وهذا ما يعترف بها العالم ويتفق عليه علماء الشرق والغرب على السواء .

— صناعة الخزف

وقد اظهر العرب اعجابا كبيرا بالخزف الصينى الذى يسمّونه "صينيا" نسبة الى الصين .

اقبل العمال فى الشرق العربى على تقليد التحف الصينية اصابوا فى بعض الاحيان نجاحا يتفاوت مداه ولا ريب فى ان بدء هذا التقليد يرجع الى فجر الاسلام .

بدأ العرب فى صنع الخزف على الطريق الصينى فى القرن التاسع ، فقد ظهرت هناك اكتشافات جديدة فى "سامرا" عاصمة الخلافة العباسية فى التاسع من الميلاد تؤكد وجود علاقات صناعية بين الصين وبين بلاد العرب ، لان من حفرات سامرا بعض اوان عربية صنعت على شكل اوان صينية وعدد كبير من خزف الصين التى وردت الى سامرا اما بواسطة التجار ، واما بواسطة السفراء الذين كانوا موفدين الى الصين .

واخذ المصريون يقلّدون فى صناعة الفخار والخزف — صناعة الصين

لعهد سونغ وعهد يوان ،خصوصا الاوانى التى صنعت فى ولاية جيكيانغ، فان هذه الاوانى كانت تنتقل كتاجر من الشرق الاقصى الى الادنى فى ايدى التجار العرب وقد اكتشفت اوانى الخزف الصينى فى مصر ،فقد تبين ان الخزف الصينى وصل الى طولون وادى النيل لاول مرة فى القرن العاشر ـــ عهد الطولونيين (٨٦٨ ـــ ٩٠٤ م) ثم بدأ المصريون يقلدون خزف سونغ الصينى فى عهد الفاطمية (٩٦٩ ـــ ١١٧٠ م) ولكن لم تتسع دائرته الا فى عصر المماليك (١٢٥٠ ـــ ١٥١٧ م) .

وفى القرن الثالث عشر فى اسرة يوان الملكية ،قدم كثير من العرب الى الصين واستقروا فيها . وقد تلقى عدد غير قليل منهم التعلم الصينى واجتازوا الامتحان العام الرسمى للخدمة العامة ،واصبحوا موظفين ، ومنهم بوشاوتشغ قد عين قاضيا ونظم ديوانا من الشعر بالاسلوب الكلاسكى . واما اخوه بوشاوكنغ فكان مساعدا لرئيس وزراء كوبلاى خان (١٢١٥ ـــ ١٢٩٤) .

٧ ـــ الرحال العرب الى الصين

ومن المسلمين الذين زاروا الصين رحالة عربى اسمه سليمان ، وقد كتب كتابا وصف فيه سياحته فى الهند والصين ـــ كتبه سنة ٨٥١ م . ومعه ذيل كتبه نحو سنة ٩١٦ م مؤلف اسمه ابوزيد الحسن . وفى هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد منها مدينة تشوانشيو ، وقد كانت مجتمع التجار ـــ وكان سليمان التاجر اول من ذكر من العرب لباس الحرير و صناعة الحرير . ثم حذا حذوه علماء

آخرون فلذا نجد فى الاسفار الصربية كثرة الحديث عن تجارة الحرير والديباج وصناعتها • فلا غرو ان هؤلاء التجار قد حملوا الى بلادهم بعض القطع النادرة من الديباج والحرير فحاكموا صناعته رسما ونسجا بعد ان تعلموا تربية دود القز واستخراج خيوط الحرير من بطونها •

ومما ذكره ابو زيد ان السفن الصينية القادمة من سيراف كانت اذا وصلت جدّة اقامت بها ونقل ما فيها من الامتعة التى تحمل الى مصر فى مراكب خاصة كانت تسمّى مراكب القلزم لان مراكب السيرافيين كانت لا تستطيع الملاحة فى شمالى البحر الاحمر • كما ان الرحالة العربى ابن بطوطة زار عدة مدن ساحلية بالصين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى • قد زار مدينة تشوانشو واعتبرها المركز التجارى للعالم • وتحدث عن حسن لقاء المسلمين فيها وذكر ان فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكانهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظّمون محترمون وقد ذكر الفخار الصينى " اما الفخار الصينى فلا يصنع منها الا بمدينة الزيتون يحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب ، وهو ابدع انواع الفخار واهل الصين اعظم الامم احكاما بالصناعات واشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس فى تصانيفهم فاطنبوا فيه • واما التصوير فلا يجاريهم احد فى احكامه من الروم ولا من سواهم ... ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين وصلت الى قصر السلطان مع اصحابى ونحن على زىّ العراقيين • فلما عدت من

القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصور اصحابى منقوشة فى كاغد (ورق) قد الصقوها بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه فلا تخطئ شيئا من صورته وذكرونى ان السلطان امرهم بذلك وانهم اتوا الى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصوّرون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك • وكانت عادة لهم فى تصوير كل من يمرّ بهم وتنتهى حالهم فى ذلك ان الغريب اذا فعل ما يوجب فرارا منهم بعثوا صورته الى البلاد وبحثوا عنه فحينما وجد شبه تلك الصورة قبض عليه • "

٨ ـــ الرحالة الصينى تشينغ هو

وجدير بالذكر ان البحّار تشينغ هو المشهور فى العالم هو من مسلمى مقاطعة يونّان من قومية خوى ، وقد سافر جدّه وابوه الى مكّة لاداء فريضة الحجّ وفى سنة ١٤٠٥ امرته حكومة اسرة منغ بالابحار على رأس اسطول ضخم يتألّف من ٦٢ سفينة ويبلغ طول كل سفينة حوالى ١٥٠ مترا ، وعرضها حوالى ٦٠ مترا ، ومن ٢٧٨٠٠ بحار • وفى فترة ٢٨ سنة من ١٤٠٥ ـــ ١٤٣٣ سبق لتشينغ هو ان قام بسبع رحلات زار خلالها ٣٥ من الاقطار الافروآسيوية • انه اول من وصل الى جنوب خط الاستواء على سواحل افريقيا الشرقية • وقد سبق تشينغ هو البحار كولو مبس قرن ونيف ، علما بان اسطوله يفوق الاسطول الغربى حوالى ٢٠ مرة من حيث عدد سفنه ويعتبر ذلك فذا فى تاريخ الابحار •

ـ١٤ـ وقد وصل تشينغ هو الى كثير من اقطار ومناطق المسلمين مثل ماليزيا

واندونيسيا وشبه قارة الهند والبنغال وباكستان وايران والديف وظفار وعدن ومالى الخ • وقد وصل الى مكّة فى رحلته السابعة لاداء فريضة الحج • وكان لرحلات تشينغ هو اثرها فى تعزيز روابط الصداقة بين الشعب الصينى والشعوب الاسلامية فى آسيا وافريقيا ، وفى دفع تبادلات الثقافة والاقتصاد وتطوير المواصلات بين الصين والدول الاخرى • اما " ماخوان " و " فى سين " و " قونغ تشن " الذين كانوا يرافقون تشينغ هو فى رحلاته فقد كتبوا كل على حدّة كتاب " مشاهدات فى العالم " وكتاب " مشاهدات متفرقة " وكتاب " مذكرة فى الدول الاجنبية " • وتعتبر هذه المؤلفات من اهمّ الوثائق لبحث العلاقات الودية بين الصين ودول آسيا وافريقية فى ذلك العهد •